j. دور أمبراطورية الخلفاء العربية ـ الشرقية وقدرها التاريخيان

I. امبراطورية الخلفاء العربية الشرقية

١ ـ امبراطورية الخلفاء أول امبراطورية سامية ـ شرقية كبرى

لقد رأينا في مجلداتنا السابقة التنافس الأزلي والحروب الدائمة، والتي منذ حرب طروادة (حوالي ١٢٠٠ ق.م.) وبخاصة منذ الحروب المادية (٤٩٢-٤٦٦ ق.م.) وحتى الإسلام، ما انفكت تجابه وتشعل نار الحروب بين العالم الغربي والبحري المتمثل على التوالي باليونان ثم الرومان والبيزنطيين من جهة، والعالم الشرقي والقاري المتمثل تباعاً بثلاث سلالات إيرانية كبرى هي: الفرس الاخمينيديون والبارتيون الأرزاسيديون والفرس الساسانيون من جهة أخرى. كما رأينا أيضاً أن السبب الحقيقي لذلك التنافس الدهري هو الرغبة التوسعية لدى كل من الجانبين المتعاديين والسيطرة على الطريق البرية التي عبر الهضبة الايرانية تصل العالم الايجي والشرق المتوسطي بآسيا الجنوبية.

وخلال القرن الذي سبق التوسع الاسلامي فإن الحروب الضارية التي شنها البيزنطيون والساسانيون ضد بعضهم بعضاً والتي انهكت قوى كل من هاتين القوتين الكبيرتين أدت أيضاً الى إلحاق الدمار بالموانىء المتوسطية والايجية ومدن ما بين النهرين والى إفادة منطقة الجنوب العربي التي انتقل اليها النقل التجاري الدولي في معظمه بين الهند ومصر والغرب. ولهذا السبب اصبحت مكة في تلك الفترة محطة هامة للقوافل المتنقلة بين اليمن وغزة وعرفت قبل الاسلام ذلك الازدهار الاقتصادي الذي أشرنا اليه. لذا فإن ذلك الازدهار الذي عرفته مكة زال بعد إمتداد الامبراطورية الاسلامية في الشرق وفي آسيا وهو إمتداد أعاد الى الطريق البرية الممتدة من المتوسط الى العراق وايران دورها ووظيفتها السابقتين.

أ ـ الامبراطوريات السامية في الشرق القديم أمبراطوريات إقليمية.

إن العرب، ببسطهم الجزء الشرقي من أمبراطوريتهم الواسعة من

المتوسط حتى الهند وفتحهم أمام حركة العبور الشريان الايراني، نجحوا حيث أخفق بإستمرار أسلافهم الساميون والمصريون في الماضي الذين لم يستطع مَن نجح منهم في تحقيق طموحاته الأمبريالية وأحلامه التوسعية إلا بتشييد، كما رأينا، أمبراطوريات إقليمية تقريباً.

ففي الألف الثالث ق.م. كان جل ما فعله ساميو أكاد (سرجون الأول ونارام سين) وساميو بابل (حمورابي) هو توحيد بلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية. وفي الألف الثاني وإثر سقوط الهكسوس لم ينجح فراعنة السلالة الثامنة عشرة إلا في توحيد مصر وسورية الجنوبية. وفي الألف الأول ق.م. شاد ساميو فينيقيا وأشور وكلده كل بدوره أمبراطوريات كبرى. لكن الأمبراطورية الفينيقية (١١٠٠ ـ ٦٠٠ق.م.) وهي بحرية أصلاً ومتوسطية، لم يكن لها في الشرق إلا رأسها وهو جيب صغير: فينيقيا التقليدية أو لبنان الحالي. فيما الأمبراطورية الأشورية الكبرى (٧٤٥ ـ ٦١٢ق.م.) وحدت الهلال الخصيب وضمت إليه لفترة وادي النيل. لكن السيادة الأشورية المفروضة على الشرق بالنار والحديد إنهارت تحت ضربات الشعوب الثائرة المختلفة التي دمرت أشور ومحت نينوى من خارطة العالم.

وبرغم نهايتها المأساوية فإن الهيمنة الأشورية، والتي تحت غطاء «سلام الموت» وحدت الشرق المتوسطي، تركت بزوالها المفاجىء لدى الشرقيين ذكرى لتلك الوحدة الأمبراطورية التي ستتكرر مرات عديدة خلال القرون التالية. «إن الوحدة السياسية الواسعة التي أنجزها السرجونيون لن تزول بعد ذلك. فتلك الأمبراطورية السرجونية، أمبراطورية آسيا الأمامية والتي سيرثها الكلدان والأخمينيديون والمقدونيون والساسانيون والعرب كل على التوالي تحت اسماء وسادة جدد، ستظل احد المعطيات الأكثر ثباتاً في التاريخ حافظة حتى النهاية دمغة الحضارة المادية التي خلفتها نينوى وبابل»[1]. وما يزال حتى اليوم، وتحت تسمية «الوحدة العربية» المعاصرة، هذا الحلم الأمبراطوري القديم هو الذي يدفع غريزياً كلاً من بلدان الشرق العربي إلى ضم جميع الآخرين تحت سلطته في تشكيل سياسي واسع.

إن الأمبراطورية السامية، البابلية الجديدة أو الكلدانية (٦١٢ ـ ٥٣٩) التي هي أيضاً فرضت هيمنتها بالإرهاب، لم تنجح في بسط سيادتها إلا على

1 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 73.

الهلال الخصيب ولفترة لا تتجاوز القرن. وأما آراميو سورية وإسرائيليو فلسطين وملوكهم الصغار فلم ينجحوا أبداً في أن يجمعوا تحت إدارة كل منهم المناطق القارية أو الداخلية من سورية وفلسطين. وإن الصراعات الداخلية بين رؤساء تلك السلالات الملكية المختلفة بالمقارنة مع نزاعات جيرانهم الأقوياء في وادي الرافدين ووادي النيل تبدو تافهة برغم التضخيم الذي تضفيه عليها روايات التوراة.

ب ـ الأمبراطوريات الشرقية القديمة الكبرى، أمبراطوريات غير سامية.

وحدها الشعوب الأمبريالية الغريبة عن الشرق المتوسطي وأعراقه من أمثال الفرس الأخمينيديين واليونان والرومان والبيزنطيين والذين تعاقبوا من العام ٥٦٠ ق.م. إلى العام ٦٤٠ ب.م. نجحت في فرض هيمنتها السياسية على الجزء الأكبر من عالم الشرق الأدنى.

وهكذا، ومنذ الفتح الذي حققه قورش (٥٦٠ق.م.) وحتى توسع الإسلام أي طيلة إثني عشر قرناً تقريباً، فإن الشرق السامي ـ الحامي والحضري والخاضع بإستمرار للنير الهندي ـ الأوروبي أي نير الإيرانيين والأغارقة ـ الرومان الذين كان الشرق الأدنى مقسماً بينهم بطريقة عشوائية، إن هذا الشرق رأى خلال تلك الحقبة الطويلة حضارته تذوي وثرواته تنهب على يد الغريب. فخلال تلك الفترة من الإستعباد، وبخاصة بدءاً من القرن الخامس ق.م. بدأت تتكون وتتطور الأفكار التوراتية حول مسيح مخلص الذي يُنبأ عنه تارة تحت صورة ملك عادل وصالح سوف يخلص شعبه من السيادة الأجنبية وطوراً تحت شكل منتصر وظافر سيعيد إلى الشرق عهداً من المجد والسلم والعدالة. ولم يطل الأمر حتى وجد الشرق المتوسطي هذا المحرر الشرقي بشخص الفاتح العربي في القرن السابع من عهدنا.

ج ـ الأمبراطورية العربية ـ الشرقية الكبرى تحمي الوحدة السياسية والتراث الثقافي والإزدهار الإقتصادي في عالم الشرق الأدنى

إن عرب الجزيرة العربية الذين إنتشروا في القرن السابع هم إذن، ونعيد القول، الساميون الأول الذين نجحوا حيث أخفق إخوانهم ساميو الهلال الخصيب (بابليون، أشوريون، كلدان، آراميون) وأنسباؤهم حاميو مصر في الماضي. وبتخليصهم الشرق من النير الغربي والإيراني، أسسوا

أمبراطورية شاسعة أوسع من أمبراطوريات قورش وداريوس والإسكندر الأكبر. وفي حمى سلاحهم إستعاد الشرقيون المتحررون موقعهم المتفوق ودورهم القيادي في العالم وأحيوا ثقافتهم الشرقية القديمة وإزدهارهم الإقتصادي السابق.

«إن هذه الأمبراطورية الآسيوية، والتي غدت بسرعة ميدانهم حملت إلى الشرقيين ما حرموا منه منذ نحو ألف عام، وهو المجد والسيادة والفخر: وهي عوامل معنوية ذات قوة لا تقدر بثمن. وقد عادت عليهم الأمبراطورية أيضاً، كما يلاحظ كرامر عن حق، بعامل مادي لولاه لما تمكنت الحضارة من الإقلاع ولما كانت ممكنة»[2].

وبالفعل فإن الشرقيين الذين بدوا راضين معنوياً بأن يروا أنفسهم وبعد قرون من العبودية متحررين من السيادة الهندية الأوروبية ومشاركين في مقدرات أمبراطورية عربية ـ شرقية مجيدة وقوية، هؤلاء الشرقيون كانوا أيضاً كبار الرابحين على الصعيد الإقتصادي من التيارات التجارية التي كانت تعبر عالم الإسلام وبخاصة الطريق التجارية في هضبة إيران التي أصبحت مجرد مقاطعة في الأمبراطورية.

وكانت الموانىء السورية ـ اللبنانية والمصرية بعد العام ٦١٢ب.م. على أثر إنتصار الساسانيين على البيزنطيين قد ضمت إلى فارس وعرفت إزدهاراً إقتصادياً عظيماً لم ينته إلا بعد العام ٦٢٨ عند إعادة إحتلال سورية ومصر على يد الأمبراطور البيزنطي هيراقليوس.

«إن النصر اليوناني على فارس، بإعادته موانىء أنطاكيا والإسكندرية، الموانىء الإقليمية القديمة، إلى بيزنطية لم يحل لا العداء التجاري الذي كان قائماً بين أساكل المشرق والعاصمة القسطنطينية ولا المعارضة الدينية والتي لم تكن ربما سوى إنعكاس للصراع الإقتصادي في ميدان الأفكار. فالإسكندرية عاصمة الأفاويه كانت ترى أكثر فأكثر إنحدار دورها الإحتكاري في هذا المجال لصالح القسطنطينية. إن المنافسة القديمة والتي جبهت تباعاً الصوريين ضد ميسين وميليت في ساحل آسيا الصغرى وضد أثينا وجابهت كذلك البطالسة ضد مقدونيا عادت اليوم لتجبه الموانىء اللبنانية ـ المصرية ضد بيزنطية»[3].

2 Gautier, *op. cit.*, p. 229.

3 Demoulin de Laplante, *Histoire générate synchronique*, II, p. 26, 27.

لذا، وعلى غرار ما حصل سابقاً خلال الحروب المادية (٤٩٢ ـ ٤٦٦ ق.م.) حين وحدت المدن الفينيقية مصيرها مع مصير الفرس الأخمينيديين ضد اليونان منافسي الفينيقيين في البحر، كذلك فإن السواحل السورية ـ اللبنانية ـ المصرية وبعد توسع العرب أعداء اليونانيين ـ البيزنطيين الذين ما يزالون يسيطرون على المتوسط وإيجه، وجدت في الساميين العرب حلفاء طبيعيين لها. فقد كان اللبنانيون، أحفاد الفينيقيين، هم الذين حثوا العرب القاريين على مهاجمة بيزنطية بحراً ووضعوا تحت تصرف هؤلاء العرب، أسوة بما فعلوه سابقاً مع الفرس الأخمينيديين، كل مواهبهم كبحارة لافتقارهم الى الأساطيل الضخمة التي كان يملكها أسلافهم.

«وفي الحقيقة فنحن نرى في هذا الاهتمام المفاجىء من قبل عرب الصحراء بالسيادة على البحر أنه بالأحرى من إيحاء البحريتين اللبنانية والمصرية القديمتين. من هنا فإن بحارة أنطاكيا وبحارة الاسكندرية وجدوا في الانطلاقة العربية فرصة ليأخذوا ثأرهم ويشفوا غلهم ضد بيزنطية التي امتصت تجارتهم. هكذا، أيام داريوس، دفع الصوريون فارس ضد أثينا. إن أسرة الأمويين الممثلة آنذاك بمعاوية والتي تبنت بقوة الصراعات والمطالب السورية إنما جسدت ذلك الاندماج بين المصالح البحرية الشرقية والمصالح العربية»[4].

٢ ـ الإسلام ووحدة أمبراطورية الخلفاء

أ ـ تأثير الإسلام كعنصر وحدة سياسي

إن الشعوب الشرقية، وقد تحررت من خضوعها الطويل وانبعثت بفضل التوسع العربي الإسلامي الذي حقق حلمها القديم بالتحرر من الغرب وفارس، كانت في البدء قد دفعت الحماسة الى حد تنازل كل منها عن شخصيته الإقليمية التي ذابت جميعاً في وحدة سياسية ـ دينية واسعة.

لكن هذه الحماسة همدت تدريجاً مع تلاشي الأسباب التي أثارتها، من الذاكرة. وتحت تأثير العوامل الجغرافية والتاريخية فإن الجماهير الشرقية، التي حفظت من الإسلام العناصر المنسجمة مع طبعها الخاص، استعادت شيئاً فشيئاً شعور كل منها بشخصيته السابقة.

إن الوحدة الإسلامية البالغة القوة في البدء راحت تضعف شيئاً فشيئاً

4 Demoulin de Laplante, *op. cit.*, II, p. 32.

مفسحة في المجال بعدها بقليل للخصوصية الإقليمية ومن ثم لحركات تحرير «الأمم الجغرافية» أو «الطبيعية» للحلول محلها. إن تبلور العالم الشرقي والذي حصل أيام حكم البيزنطيين والفرس حول الاسكندرية وأنطاكيا والمدائن سيحصل مرة جديدة في أيام العرب حول مراكز جديدة أهمها دمشق والقاهرة وبغداد أي سورية ومصر وبلاد ما بين النهرين.

وبعد حوالي نصف قرن من الغزو العربي الإسلامي، فإن مختلف بلدان العالم الشرقي، والتي عرفت بفضل هذا الغزو وحدة سياسية وعظمة أمبراطورية لا سابق لها في تاريخها والتي اعتمدت دين الفاتحين ولغتهم، راح كل منها يحاول استعادة شخصيته القومية. إن الوحدة السياسية والأدبية لعالم الشرق الأدنى التي حققها العرب عادت لتتحطم من جديد بفعل خلافات مختلف الشعوب الشرقية التي انضوت اليها عن طيب خاطر، والتي مع احتفاظها بالدين الاسلامي واللغة العربية، عادت تحيي حياتها الخاصة والمتميزة وشخصيتها السياسية.

وفضلاً عن ذلك فإن الدين الإسلامي، الذي كان في البدء قوياً كفكرة ـ قوة خلال عملية توسع الفتوحات العربية، فإنه ما عتم وتجزأ الى مذاهب عدة متخاصمة وصار بعدها عاجزاً عن جمع الشعوب الشرقية أو إثارتها ضد أية أخطار خارجية جديدة.

إن هذا الفتور في المشاعر والطاقات المتناقض جداً مع الحماسة في أزمنة الفتح الأولى إنما هو من فعل الزمن الطبيعي، والذي بفضله فإن الماضي وقواه التي هي من نتاجات الوسط الطبيعي والطبائع العرقية تستعيد بشكل حتمي سلطانها.

إن الفتح العربي ـ الإسلامي، شأن العديد من الفتوحات الأخرى التي سبقته أو تلته، قد انعكس بلا ريب على الحياة النفسية في المجتمعات الشرقية. لكن هذا الانعكاس كان مقدراً له أن يفتر لا بل أن يتلاشى تماماً على المدى الطويل تحت تأثير العوامل الطبيعية والعرقية المحلية الراكدة.

إن هجرات الشعوب، وبفعل الاحتكاكات والامتزاجات التي تحدثها وأحياناً الأفكار العاطفية التي تثيرها، تولد غالباً فَكرة ـ قوة جديدة أو روحاً جديدة يسميها الفلاسفة «روح العصر». وهي على طرف نقيض من «روح الطبيعة» التي تؤدي الى ترسيخ طبع شعب ما، فإن روح العصر بعكسها تغير

أحياناً من هذا الطبع، لكن هذا التغيير الآني يزول على المدى الطويل مع صحوة الطبع القديم. ولإثارة غليان جديد لا بد من عوامل جديدة تحدث تغييرات عرقية واجتماعية ولكن وحتى في هذه الحال فليس من المؤكد أن النتيجة التي سنحصل عليها تكون مماثلة للنتيجة السابقة وفقاً للسنة التاريخية المعروفة بسنة عدم التكرار.

وبحسب ما قاله هـ. دو كيسرلنغ فإن روح العصر الذي يسميه «الحس الجديد» «له تأثير منعش حتى من ناحية الحيوية الجسدية. وهذا كان تأثير المسيحية والإسلام في حوض البحر المتوسط وهذا أيضاً هو فعل الروح الغربية في العالم الشرقي. ومع هذا، يضيف كيسرلنغ «في سبيل تحقيق وحدة في الأسلوب جديدة لا بد من إخضاع الأشكال القديمة أيضاً، وعلى صعيدها الخاص، لعملية سبك جديدة: يجب أيضاً إحداث إنعاش جسدي صرف... إذ لم تولد يوماً أية ثقافة جديدة إلا وهي مرتبطة بعملية امتزاج بدم جديد... فمن دون الامتزاج بدم جديد فإن حيوية الشعوب مستحيلة، وللسبب نفسه الذي يجعل من زواج الأقارب على المدى الطويل يعطي نتائج مضرة»[5].

وهكذا فالدم الجديد كالروح الجديدة، شأنه شأن كل دين أو فكرة ـ قوة جديدين لا تعطي بدورها الحافز الى ما لا نهاية. إن العلم التجريبي الحديث ومعطيات التاريخ تؤكد من هذا القبيل استنتاجات ابن خلدون الذي حدد لهذا الدور مدة متوسطها ثلاثة أجيال. وفي نهاية هذه المدة فإن الماضي يستعيد سلطته: «فالحماسة تشيخ، وإذا نظرنا الى الأديان السابقة فلا نجد من بينها من استمر الايمان به أو الحرارة التقوية فيه أكثر من ماية سنة»[6].

ب ـ تأثير الإسلام كعامل للوحدة القومية

إن الحياة الاجتماعية للعالم الاسلامي الأولي أُسست على مبدأ «الأمة» والذي يخضع للوحدة الدينية مختلف المجموعات القبلية والقومية والعرقية. «إنما المؤمنون إخوة» ـ (القرآن الكريم، ٤٩، ١٠).

ومما لا جدال حوله أن أي دين، وبخاصة الدين الإسلامي، بفضل معتقداته وطقوسه وشعائره التي تشكل أساس الحياة الدينية والاجتماعية عند المسلمين، يبث بين أتباعه وحدة شعورية وروحية ومعنوية حقيقية. إنه أمة

5 H. de Keyserling, *Analyse spectrale de l'Europe*, p. 349, 350.
6 H. Taine, *Nouveaux essais de critique et d'histoire*, p. 247.

دينية تبدي بعض التماثل في السلوك والشعور وطريقة العيش والتصرف وتشابهات معنوية كما تبدي عقلية وتقاليد وعادات اجتماعية وذكريات تاريخية متشابهة.

بيد أن وحدة الدين، وأسوة بالقرابة الجسدية أو اللغوية، لا تحتم البتة هذا الشعور بالتضامن وهذه الحاجة الى التعاون التي تكون المجتمعات المتجانسة. وهي لا تصبح عامل وحدة قومية حقيقياً إلا عندما تضاف الى العوامل المذكورة آنفاً «وحدة في النشاطات والمصالح المشتركة بعضها مع بعض» والشعور بالانتماء الى منطقة جغرافية محددة وأخيراً وبخاصة إرادة العيش معاً والتعاون في العمل المشترك الذي تقوم به المجموعة الاجتماعية. ومن المؤكد أن القرابة الدينية والثقافية إذا نظرنا اليها على حدة نرى أنها تقدم غالباً عامل اتحاد قوياً عندما يتعلق الأمر بمواجهة تجمعات معادية ذات دين وثقافة مختلفين. ولكن وفي مثل هذا الاحتمال فإن الوحدة هي سلبية وآنية تحديداً.

لذا، وكما رأينا، فإن صلات التضامن الجماعي بين أتباع الدين الاسلامي الأولين، والتي بثتها روح الأخوة والمساواة التي أمر بها الإسلام، لم تلبث أن تراخت ثم انهارت تحت ضغط الروح الفردية الأقوى منها والذاتيات أو الروحيات القبلية والقوميات الاقليمية. وكانت تلك الحركات الانفصالية أو النابذة تظهر في غالب الأحيان بشكل انشقاقات سياسية ـ دينية تنم في توزيعها الجغرافي بوضوح عن رغبة دفينة لدى القائمين بها في التحرر المحلي.

إن أول فجوة أحدثت في صرح الإسلام الطائفي كانت من فعل العرب أنفسهم الذين أوجدوا ونشروا هذا الدين الكبير. ففي المجتمع الإسلامي الأولي، وحيث كان كل المسلمين إخوة ومتساوين الى أي عرق أو لغة انتموا، فإن عرب الجزيرة العربية أرادوا ممارسة حق القيادة على غير العرب ممن اعتنقوا الإسلام. ومن مجرد إخوة تحوّل هؤلاء العرب الى سادة على أبناء دينهم من الشرقيين وقد أصبحت الأمة الإسلامية، كما رأينا، أيام الأمويين أمبراطورية عربية حقيقية يقودها ويستثمرها مواطنو النبيﷺ.

وأكثر من ذلك، فإن عرب الجزيرة العربية هؤلاء أنفسهم، وبما أظهروه من روح الخصوصية أو الذاتية التي تحرك قبائلهم ناهيك بالمنافسات بين القبائل التي تسببها هذه الروحية باستمرار، أعطوا هم أنفسهم المثل في التفرقة

التي استغلها من كانوا من أصل غير عربي. فالموالي، وقد تحولوا الى العروبة واعتنقوا الإسلام وتالياً غدوا متساوين في الحقوق مع العرب، كانوا يحتجون باستمرار، كما رأينا، من انعدام المساواة الفعلية التي كانت دائماً من نصيبهم في وسط الأمة الإسلامية.

إن دعاة القومية الإقليمية، مستغلين هذا التمييز سواء مع أو بدون إعلانهم للانشقاق الديني، استعادوا تدريجاً وعيهم لشخصيتهم الجغرافية القديمة ومع تمسكهم بالدين الإسلامي راحوا يتطورون باتجاه استعادة كل منهم أمته الجغرافية والطبيعية التي تعتبر عناصرها المكونة أقوى من عناصر الأمة الدينية.

ومن المهم أن نوضح هنا بأن الطابع الآني الذي يميز تأثير الإسلام كعنصر للوحدة السياسية وطابعه العابر كعامل وحدة قومية ليسا خاصين بالدين الإسلامي وحده بل هما على العكس مشتركان لدى العقائد الدينية أو الفلسفية. وهذا هو أيضاً حال اللغة العربية التي هي قليلة التأثير في هذا المجال مثلها مثل سائر اللغات التي تتقاسم المناطق الجغرافية في الكرة الأرضية.

ج ـ تأثير العوامل الجغرافية والتاريخية على مصائر الأمبراطورية العربية ـ الشرقية

إن تأثير العوامل الجغرافية والتاريخية في ميدان الوحدة السياسية والقومية هو أقوى، كما رأينا، من تأثير الدين واللغة. فالمجموعات البشرية في سياق تطورها المتعاقب، كما نعلم، إنما تقودها وتحكمها طبائعها العرقية الغريزية وهي حصيلة عامل الوراثة وتأثير الوسط الجغرافي،بأكثر من الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية (لغة، دين، إلخ...) والتي يمكنها، كما رأينا، أن تتغير من غير أن تعدل مع ذلك الطبائع العرقية الوراثية والدائمة والتي تشكل روح العرق.

إن الشرق، وبعدما غيّر مرة جديدة دينه ولغته بعد التوسع الاسلامي، فقد احتفظ بروحه القديمة والثابتة. ومن جهة أخرى، مع أن المعتقدات والممارسات الدينية، والتي هي طبائع ثانوية، قد عدلها أو غيّرها الاسلام إلا أن هذه التعديلات، مع سطحيتها، تمد جذورها، كما رأينا، في تراث الماضي الشرقي السابق للإسلام. وأما بالنسبة الى الشعور الديني، الذي هو من إفراز النفس، وتاليا هو طبع أساسي، فلا ريب أنه ظل على ما كان عليه قبل الاسلام، الذي هو في أي حال دين شرقي. وفي هذا المجال من الشعور

الـديني يمكننـا التـأكيـد بـأن المسيحيـين الشـرقيـين هم أقـرب الى أبنـاء جنسهم مسلمي الشـرق ممـا هم من أبنـاء دينهم مسيحيي الغـرب. فـدين السكـان الأصليين يحمل طـابع البلد الـذي ولد فيـه في حـين أن ديناً «مستـورداً» يتغـير تدريجاً بحسب طبع الشعب الذي اعتمده.

ويلاحظ كيسرلنغ أنه في الهند «فالاسلام يتطور أكـثر فأكـثر بحسب الروح الهندية، فعلى المدى الطويل لن يلبث العرق ليطالب بحقـوقه. وكـما كان الحـال منـذ زمن طويـل في فارس ففي الإسـلام الهندي يـظهـر استعـداد هـذا العـرق للصوفية أكـثر فأكـثر مع كـل زعيم ديني جديـد. ومن جهة أخرى فإن المسيحيـة (الغـربية) تصبـح جيلاً بعـد جيل غـريبة أكـثر فأكـثر عن الساميـة... ويمكننـا القـول اليوم إن الـروح التي تحـرك الغـرب تختلف بنـوع خـاص عن روح هـذه الثقافة المتوسطية التي كانت مهده»[7].

إن الطبع العام الذي يميز الشرق في صفـاته النفسيـة الأساسيـة هو تقـريباً الـطبع نفسه الذي كان في عصر حمورابي وفي عصر محمدﷺ وفي أيامنا هذه. وبعـد الفتح العـربي ـ الإسلامي «فـإن سـوريـة الأراميـة ـ البيـزنـطيـة وفـارس السـاسانيـة لم تلبثا، إن لم يكن من الـوجهة الـدينيـة عـلى الأقـل فمن الـوجهـة الثقـافية، أن أخضعتـا محتلهما الفظ»[8]. وهكـذا كان الأمـر بالنسبـة الى مصـر، والتي منـذ تولي الحـاكم إبن طولـون المقـدرات فيهـا، (٨٧٢) وقـد كـان عمليـاً مستقلاً عن خلافة بغداد العبـاسية، بـدأت تستعيد ذاتيتهـا القوميـة وشخصيتها السياسية المتميزتين.

وعندما، وبدءاً من العام ٨٤٢، بدأت الأمبراطورية العـربية ـ الإسـلامية تتردى، فإن الصورة العرقية والسياسية القديمة التي كان يظهر بهـا العالم الشـرقي عاودت الظهور بمظهرها السـابق. ويقول ميـتز «إن ما كـان يسمى بأمبـراطوريـة الخلفـاء انتقل الى حـالة مـا قبل الإسـلام وإن الكيانـات العرقيـة القديمـة داخل حدودها الطبيعية عادت لتتشكل في دول مستقلة، وإن العـالم الاسلامي استعـاد تـركيبته القـديمة التي كـان عليها دائـماً، مـع استثنـاءات قليلة، طـوال التـاريـخ الشـرقي وخـلالـه. وقـد حصـل هـذا التفسـخ العـام ٣٤٢ للهجـرة، ٩٣٥ للمسيح»[9].

7 Keyserling, *Le journal de voyages d'un philosophe*, I, p. 249, 250.
8 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 154, 155.
9 Mez, cité par Gautier, *op. cit.*, p. 231.

فبـدءاً من هذا التـاريـخ تقلص دور الخليفـة نهائيـاً الى دور ملك اسمي. وبـدأت الأمبراطـورية العـربية ـ الشـرقية، وتحت حكم سـادة أتراك وإيـرانيـين جدد كان يـدعون «أمـير الأمراء» ثم «سـلاطين»، بـالتفكك وإن مصـر المستقلة منـذ العام ٨٧٢ أصبحت بـدءاً من العـام ٩٦٩ خـلافـة منفصلة: هي خـلافـة فاطمي القاهرة منافسة خلافة عباسي بغداد.

II. خلاصة عامة

إن الأمة العربية ـ الإسلامية الأولى التي كوّنت في الحجاز بنبوغ منظمها محمدﷺ، والتي كانت تتميز في البداية بتماسك سياسي وديني واجتماعي شديد المتانة، تحولت بعد توسعها العسكري والسياسي خارج الجزيرة العربية الى أمبراطورية شاسعة كانت تمتد من الهند وحتى مراكش واسبانيا الأطلسيتين. إن الأجزاء المتفرقة من تلك الدولة الواسعة كانت بالأخص مرتبطة بعضها ببعض بروابط اللغة العربية والدين الإسلامي، تحت سلطة الخليفة العليا تالي النبيﷺ والمقيم تباعاً في المدينة ودمشق وبغداد.

وككل التكوينات السياسية الكبرى المؤلفة من مناطق متغايرة ومجموعات عرقية واجتماعية منوعة، فإن الأمبراطورية العربية ـ الإسلامية الواسعة لم تلبث أن ظهرت كتشكيل غير متجانس تعصف به تيارات انفصالية وقوى نابذة. وإن التقسيم الجغرافي الذي يشجع تشكيل وتطوير الأمم الإقليمية وشخصية كل منها ويصوغ طبائعها العرقية الأساسية هو، كما رأينا، أقوى من العوامل الدينية واللغوية التي قد تحاول إزالتها.

١ ـ الثوابت أو الدوائم التاريخية

إننا لدى عرضنا في الصفحات السابقة لتطور عالم الشرق الأدنى منذ توسع عرب الإسلام (٦٤٠) وحتى وصول الأتراك السلاجقة الى السلطة في بغداد (١٠٥٥) دأبنا، وكما أعلنا في التمهيد لهذا المؤلف، على إظهار استمرارية الأحداث الكبرى خلال تلك القرون الأربعة وارتباطها الوثيق بأحداث ما قبل الإسلام التي سبقتها. إن هذه الاستمرارية وهذا الارتباط في الأحداث الكبرى الشرق أوسطية والتي تتردد بشكل شبه دوري في خطوطها الكبرى منذ الأصول، تحددهما البنية والموقع الجغرافيان لبلاد الشرق

الأدنى واللذان تحت تأثيرهما تقوم شعوب هذه المنطقة بالفعل ورد الفعل أي تتصرف، وتتفاعل بوعي أو بلا وعي لأغراض أملتها عليها ضرورة العيش والتطور والاستمرار.

إن تاريخ الشرق الأدنى الطويل منذ الألف الرابع ق.م. وحتى العام ١٠٥٥ ب.م. يظهر لنا، كما قلنا، وجود سلسلة من الثوابت أو الدوائم التاريخية والتي عرضناها آنفاً وأهمها:ـ العداء بين المناطق الداخلية أو القارية والمناطق المتوسطية أو البحرية، تعارض المجتمعات الحضرية في بلاد ما بين النهرين ـ سورية ـ مصر والشعوب البدوية في الصحراء السورية ـ العربية، تنافس بلدي حوض الفرات وحوض وادي النيل على امتلاك الممر السوري الفلسطيني، التجزئة الجغرافية والعرقية والسياسية لدى مجموع الشرق المتوسطي عامة والهلال الخصيب خاصة، توسع الشعوب المتحركة نحو الهلال الخصيب طريق المرور الكبيرة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، إلخ...

إن تلك الأحداث الكبرى التي ترتسم بوضوح منذ آلاف السنين في تاريخ الشرق الأدنى والتي هي متطابقة وقائمة أصلاً في كل العصور لا يمكن أن نجد تفسيراً لها إلا في التأثيرات الجغرافية التي هي أكثر ثباتاً وأقوى من المبادرات البشرية وتحدد مجرى الأحداث التاريخية والتطور الاجتماعي والسياسي لمجتمعات الشرق الأدنى.

فأحداث الماضي تظهر لنا أنه وفي تاريخ الشرق الأدنى، كما في تاريخ سائر الشعوب، فإن العقائد الدينية والفلسفية والعلمية والاقتصادية والتغييرات السياسية واللغوية والدينية والثقافية إنما تسودها ضرورات طبيعية تعيد الأمم المتفرقة كلاً الى أوضاع وجودها الطبيعية. إن الشرق الأدنى العربي والمسلم يتصل بالشرق الأدنى السابق للعرب المسيحي أو الوثني ويكمله. إن التوسع العربي ـ الإسلامي قد استبدل بلاد ما بين النهرين وسورية الآراميتين والمسيحيتين ومصر القبطية والمسيحية ببلاد ما بين النهرين وسورية ومصر العربية والإسلامية. إن التغيير قد حصل على الصعيد اللغوي والديني والثقافي وحتى الاقتصادي والسياسي من غير أن يؤثر على صميم النفس التي هي دائمة عند شعوب هذه البلدان أو يعدل بشكل دائم في طبائعها العرقية الأساسية أو القومية والتي استمرت، كما في الماضي، تحكم تطور كل من تلك الشعوب.

إن هذه الحقائق التاريخية العليا لا تقلل شيئاً من الأهمية السياسية

والعسكرية والدينية والثقافية والاجتماعية للثورة الكبرى التي قام بها الإسلام، والذي يمثل في القرن السابع من عهدنا حدثاً عالمياً وشرقياً أدنى معاً. ولكن هذه الثورة لا تشكل، من حيث التطور التاريخي لدى شعوب الشرق الأدنى، سوى فصل جديد وهو فصل بالغ المجد لا ريب ولربما الأمجد بين كل الفصول التي سبقته وتلته ـ في مجرى تسلسل الأحداث الكبرى التي تركت أثراً أو غيّرت مجتمعات الشرق الأدنى منذ أقدم العصور.

بالفعل، ومنذ عهد الخليفة عثمان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) ثالث الخلفاء الراشدين، فإن الميول الإقليمية استيقظت في البلدان المحتلة. وعند موت عثمان عاد التنافس الدهري بين بلاد ما بين النهرين ومصر، اللتين ضمتا منذ حين قصير الى أمبراطورية الخلفاء، الى الظهور بعنف في سياق التنافس الجاري على عرش الخلافة بين علي (٦٥٦ ـ ٦٦١) من جهة، يدعمه العراق، ومعاوية من جهة أخرى (٦٦١ ـ ٦٨٠)، تدعمه مصر وسورية.

إن الحروب الأخوية الدموية التي تلت ذلك وولادة الانشقاقات السياسية ـ الدينية الكبرى في الإسلام، واغتيال علي وولديه الحسن والحسين ووصول سلالة الأمويين وخلافتهم الى الحكم في دمشق (٦٦١)، فتحت عهداً من الصراعات الدامية انتهت بعد قرن من الزمن الى إبادة الأمويين وانهيار سلالتهم وخلافتهم العربية ـ السورية ووصول سلالة العباسيين وخلافتهم العربية ـ العراقية الى الحكم وإقامتهم في بغداد (٧٥٠).

ومن جهة أخرى فإنالطوائف السياسية ـ الدينية الإسلامية (السنية، الخوارج، القرمطية، الشيعية، إلخ...) والتي حلت محل الطوائف السياسية ـ الدينية المسيحية (القائلة بالطبيعتين والطبيعة الواحدة والنسطورية، والمشيئة الواحدة، إلخ...) والتي كانت تجسد المعارضات والنزاعات السياسية والتي عملت على زعزعة الأمبراطورية اليونانية ـ البيزنطية وأدت في النهاية الى فرطها، هي نفسها حركت عالم الاسلام وجزأته وحطمت الوحدة المعنوية والروحية للمجموعة الإسلامية وقوضت أسس الوحدة السياسية في أمبراطورية الخلفاء.

إن التنافس المزمن بين العراق ومصر، والذي خبا لفترة بفعل قبضة العراقيين القوية، ما عتم أن عاد الى الظهور أيام الخلفاء العباسيين. إن سلالات الطولونيين التركية (٨٧٢ ـ ٩٠٥) والأخشيديين (٩٣٧ ـ ٩٦٩)

وسلالة الخلفاء الفاطميين (٩٦٩ ـ ١١٧١) التي حكمت تباعاً وادي النيل أعادت الى مصر استقلالها، وأسوة بأسلافها القدامى الفراعنة والبطالسة، فإنها احتلت سورية ووقفت نداً لخلفاء بغداد. وإن هذا التنافس نفسه سيستمر بعد وصول سلالة السلاجقة الأتراك الى الحكم في بغداد (١٠٥٥) بين سادة الحكم المتعاقبين في بغداد وأندادهم في القاهرة وحتى العام ١٥١٧ . في هذا التاريخ فإن الأتراك العثمانيين، الذين سيبسطون سيطرتهم على مجمل الشرق الأدنى، سيضعون حداً طيلة أربعة قرون (١٥١٧ ـ ١٩١٨) للمنازعات الداخلية بين صغار ملوك الشرق العربي.

وهكذا، وعلى نحو ما حصل إثر تحول الهلال الخصيب الى الآرامية في الألف الأول ق.م. ثم تحوله الى المسيحية في النصف الأول من الألف الأول ب.م. «فإن العنصر الخام في العالم الجديد لم يكن آدم جديداً بل الآدم القديم نفسه» ناهيك بأن «العنصر الخام» في الشرق المتحول الى العروبة والإسلام ليس شرقاً جديداً بل الشرق القديم نفسه والمتغير سطحياً والمجدد آنياً بفعل التطعيم العربي. فقبل الإسلام وبعده فإن سياق التطور نفسه ارتسم لدى شعوب تلك المنطقة.

٢ ـ حقائق تاريخية عليا

أ ـ دروس التاريخ

لقد رأينا أنه إذا كنا من خلال معلوماتنا الراهنة لا يسعنا استخلاص الدروس الدقيقة والأكيدة من دراسة التاريخ أو التنبؤ بدقة بالأحداث القادمة لكن في المقابل فإن علم التاريخ الممتزج بعلوم الجغرافية البشرية وعلم الاجتماع وعلم النفس يسمح لنا بأن نفهم «مصائر المجموعات البشرية والمصالح التي تفرق فيما بينها والصراعات التي تخوضها وأحياناً الدوافع . . . التي توجه إرادتها في اتجاه ما أكثر من الآخر».

إن فائدة التاريخ الرئيسية هي في إظهار نتائج الأعمال الاجتماعية وردود الفعل والانعكاسات المتعددة التي تتبعها عادة، وتأثير البيئة على الأفراد وتأثير الطاقات الفردية على المجموعة ككل. وهي بالنتيجة قد تحذر الناس من خطر التهورات النزقة والتجديدات المفاجئة والأعمال العنيفة والتدابير القانونية التي تضغط على الغرائز العامة في الطبيعة البشرية أو تجرح الميول الخاصة التي تتمتع بها كل مجموعة اجتماعية . . .

إن معرفة السنن التاريخية... يمكنها أخيراً تحديد الميول الطبيعية في التطور الإجتماعي، والإتجاهات العامة التي تتبعها المجتمعات البشرية في حالتها الطبيعية... والحدود التي يمكن لهذه الميول العامة أن تتغير ضمنها... وبرغم تقييدها على هذا النحو إلا أن سنن التاريخ ما يزال في مقدورها أن تزود علم الإجتماع والسياسة بمؤثرات مفيدة (موريه).

وفي النتيجة فإن القوانين التي سنها الناس والتغييرات السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي تنص عليها ينبغي لتنجح وتدوم أن تتلاءم مع مقتضيات البيئة الخارجية وأن تأخذ بعين الحسبان الميول الطبيعية لدى المجتمع الذي تطبق عليه والحدود التي تراوح في إطارها تلك الميول، أي الطبائع النفسية الوراثية التي تحدد السلوك الطبيعي للشعوب.

ولمعرفة الميول الطبيعية عند شعب ما وحدود إمكانات عمله معرفة دقيقة نوعاً ما لا يمكننا تحقيق ذلك إلا في ضوء الظروف الكبرى في تاريخه. ومن الخطأ التركيز فقط في هذا المجال على السلوك والخطب اليومية أو المظاهرات الشعبية المنظمة التي تثير عواطف الجماهير ولكن نتائجها تكون سطحية وعابرة بشكل عام.

فلا بد لنا إذن من البحث في ماضي الشعوب عن طريقة تصرفهم خلال مناسبات مماثلة وليس في أوضاع الحياة العادية... ففي الأحداث الكبرى فإن روح العرق تنهض مع كل غرائزها وتسيطر على النفس المشكلة وفق الحاجات اليومية... إن تلك القوى الوراثية التي لا تظهر إلا في الإضطرابات الكبرى، تبقى في الأزمنة العادية مجهولة»[10].

ب ـ حتمية سنن الحياة

يبدو أن الناس سهوا عن أن سنن الطبيعة والحياة لا يمكن مخالفتها من غير عقاب. وهذا النسيان يعود إلى واقع أن تأثير هذه السنن هو عامة غير منظور وغالباً متأخر وإن ذاكرة الناس مع الأسف قصيرة جداً.

«إن هذا العجز العام عن فهم قوة السنن الطبيعية مرده بلا ريب إلى كون تلك السنن لا تعمل إلا بعد مرور وقت ما. وإن المنظور الفوري يخفي غير المنظور البعيد وإنما المحتوم (غ. لوبون). ومن جهة أخرى فإن السنن التي تحكم العالم الطبيعي وعالم الحياة «هي صامتة لا تنذر أولئك الذين يخالفونها ولكنها تدمرهم. وما من إنسان ينتهك سنن الحياة بلا عقاب» (أ. كاريل).

10 G Lebon, *Premières Conséquences de la Guerre*, p. 42, 43.

لذا فإن التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلخ. . . والتي تعاكس سنن الطبيعة والحياة هي غير مضمونة النتائج وتفضي دوماً إلى الإخفاق وفي كثير من الأحيان إلى الكوارث. وإن كل جهد متخذ في ظل ظروف غير طبيعية «يخضع آجلاً أو عاجلاً إلى سُنّة السقوط ثانية» مع ما يعني ذلك السقوط من دمار وبؤس.

٣ ـ تأثير التقدم العلمي الحديث على تطور المجتمعات البشرية

وقد يميل البعض إلى الإعتراض بقولهم إنه وإذا قامت العوامل الجغرافية في الماضي بتحديد بعض الثوابت النفسية والتاريخية فالأمر لم يعد هكذا في عالمنا الحاضر حيث قامت عوامل جديدة أوجدتها الإختراعات والتقدم العلمي مما قد يؤدي إلى خفض تأثير القوى الجغرافية والتاريخية على تطور المجتمعات البشرية لا بل إلى إزالة تأثيرها.

إن هذا الطرح ليس إلا وهماً من أوهام الفكر. وقد كذبه على أي حال سلوك الناس الحاليين الذين يستمرون في التصرف حيال بعضهم البعض كما كان يفعل أسلافهم الأقدمون. ولا ريب أن العلم والتكنولوجيا غيّرا بعمق عالم عصرنا. غير أن المظهر البشري للمشاكل السياسية والإجتماعية اليوم لم يتغير على الإطلاق. نظراً إلى أن الإنسان نفسه، صانع هذه التغييرات، لم يتغير في غرائزه العميقة. حَسب التقدم العلمي والتكنولوجي أنه زاد فقط من وسائل هذا الإنسان وإمكاناته وفعاليته سواء للخير أو للشر. «إن كل صفات الإنسان المتوحش والبربري ما تزال مستمرة لدى الإنسان المتحضر تحت أشكال ملطفة إلى حد ما وهي تكوّن ما يمكننا تسميته بالجانب التحتي للتاريخ أو باطنه (زابوروفسكي).

لقد رأينا أن تطور المجتمعات البشرية يحكمه، ليس العقل أو المعرفة، بل مجموع المواهب الفطرية لدى الفرد وبخاصة إستعداداته العملية والعاطفية أو بكلمة أخرى طبائعه العرقية الوراثية أي العناصر النفسية والميول الروحية والجماعية والتي هي حوافز «التصرفات الغرائزية» لدى البشر والمحركات الرئيسية لأعمالهم.

إن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الطبائع المكتسبة أو الاجتماعية كالعلم والمعرفة المتخصصة والعادات والتقاليد الإجتماعية ونمط الحياة وبشكل عام كل المظاهر المادية للعقل وللنشاط البشري والتي لا تؤثر إلا بشكل عارض وأحياناً فردي على سلوك الكائنات البشرية. إن هذه «التصرفات المكتسبة»، وهي خارجية وسطحية ومحصلة منذ الولادة، هي متغيرة بشكل أساسي وهي لا تنتقل أبداً إلى

الذرية ولا تغيّر أبداً الطبائع الفطرية أو الأساسية. «إن المعرفة لا علاقة لها بالطبع وتظل كأنها طافية، (هـ. ماريون). «وفي حين أن العقل قد تقدم على مرّ العصور إلا أن المشاعر التي تتحكم بالناس لم تتغير... وما من ثقافة يمكنها محو غرائز الجدود» (غ. لوبون).

إن العلم والتثقيف والحضارة لم تستطع أن تمنع أو تقلل من وحشية الحربين العالميتين الكبيرتين اللتين حصلتا في النصف الأول من القرن العشرين. وأكثر من ذلك فإن تلك التجارب الدامية لم تعلم الناس الحاليين، على ما يبدو، أن القوة التي تدمر الغالبين والمغلوبين معاً لا تحل إلا آنياً المشاكل التي تفرق بينهما، وأن أحلام الهيمنة هي أوهام خطرة وخرافات باهظة الثمن. وأنه لا يمكن لأي شعب أن يستعبد إلى ما لا نهاية شعوباً أخرى.

إن التقدم الذي حققه العلم والحضارة بدل أن يعيد الناس إلى صوابهم ويلجم مطامعهم وشهواتهم نرى أنه لم يؤد في أيامنا هذه إلا إلى زيادة وسائل التدمير. وكلنا يعلم بأن توازن القوى الدولية والخشية من الكوارث ـ لا إنتشار الأنوار أو تطور المشاعر الإنسانية ـ هو ما يلزم الشعوب الحالية موقتاً لسلوك جادة الحكمة. فإذا قيض لهذا التوازن أن يختل فإن الطمع والبغضاء سيستعيدان حتماً سلطانهما المهلك.

٤ ـ في الشرق العربي في أيامنا الحاضرة: الماضي ينير الحاضر ويفسره

إن تطور شعوب الشرق الأدنى منذ الأصول وحتى إرتقاء السلاجقة الأتراك إلى سدة الحكم في بغداد (الألف الرابع ق.م. ـ ١٠٥٥ب.م.) والثوابت والدوائم التاريخية التي نستخرجها من هذا التاريخ الطويل الذي عمره أربعة آلاف سنة يسمح لنا بفهم تطور هذه الشعوب من العام ١٠٥٥ وحتى أيامنا هذه. إن تاريخ الشرق الأدنى السابق للإسلام والإسلامي مفيد إذن في فهم الأحداث الحالية، إذ يسمح لنا باكتشاف المعطيات العميقة للمشاكل الكبرى التي تحرك اليوم شعوب هذه المنطقة من العالم. إن الماضي ينير الحاضر ويفسره. فالشرق الأدنى المعاصر سيكون مبهماً إذا لم نستشف، في تعقيدات تطوره الحالي، الفعل المستمر للثوابت والدوائم التاريخية أو بكلمة أخرى تكرار الأحداث الكبرى للماضي القريب والبعيد.

إن الصورة السياسية الحالية للشرق العربي هي بشكل غريب تلك الصورة نفسها التي رأيناها باستمرار في خطوطها الكبرى خلال التاريخ الطويل لهذه المنطقة في كل المرات التي لم تكن فيها محكومة من قبل سادة أجانب. وإن وجود العديد من البلدان والشعوب العربية المستقلة في الشرق اليوم ليس تعبيراً عن ظاهرة عارضة من التفكك بل نتيجة لعملية تنظيم وتطوير عادية خاصة بكل من هذه البلدان أو الشعوب ضمن الأطر السياسية التي صاغتها الجغرافيا وثبّتها التاريخ.

وهكذا فإن التنافس والعداوات والمطامع والمطامح تستمر في أيامنا هذه، كما كانت في الماضي القريب والبعيد، في شق صفوف مختلف شعوب الشرق الأدنى ومجابهتها بعضها ببعض وهي شعوب تتبع الأهداف نفسها التي كان يتبعها أسلافها وتسلك الطرق نفسها وتنطلق في المغامرات إياها وتخضع لدورات التطور نفسها التي خضعوا لها.

إن التطلع نحو الوحدة الذي يحرك جزءاً كبيراً من شعوب الشرق العربي منذ أن نالت تلك الشعوب إستقلالها يعود في الواقع إلى إستمرارية وحدة ردات الفعل القديمة وبشكل مشوش لدى هذه الشعوب المختلفة ضد الهيمنة الغربية التي إستعبدتها في الماضي على إمتداد قرون عدة: وفي هذا المجال فإن القرابة الدينية واللغوية ليست في الواقع إلا عامل بلورة لهذا الرد فعل الكامن وليست سبباً لها.

إن هذا الواقع يتضح أكثر متى علمنا أن رد الفعل الحديث الذي تقوم به البلدان العربية المستقلة ضد مطامع الغرب قد جذب غالباً تلك الدول إلى فلك العالم الأفرو ـ آسيوي الذي تقاربها معه وحدة ردود فعل مماثلة هي أقل دينية وثقافية منها معادية للغرب. ولقد رأينا طوال الألف سنة التي سبقت الإسلام رد الفعل نفسه هذا المعادي للغرب يحرك الشرق اليوناني ـ الروماني ويدفعه إلى أحضان فارس المزدية العدوة التقليدية للغرب القديم. وإن هذا الشعور نفسه قد حرك أيضاً عشية التوسع العربي ـ الإسلامي الشرق المسيحي والبيزنطي ضد أمبراطورية بيزنطية المسيحية.

إن التطلع إلى الوحدة السياسية بين الدول العربية، والذي يعود إلى الخوف الوراثي من الخطر الخارجي وإلى تعقيد المشاكل الداخلية التي تبلبل كل الشعوب المستقلة حديثاً، هو أكثر سلبية منه إيجابية ويميل بالضرورة إلى الانحلال شيئاً فشيئاً كلما إبتعد الخطر الخارجي وكلما حسنت شعوب الشرق العربي المستقلة أوضاعها

الإقتصادية والإجتماعية والثقافية ووطدت مؤسساتها السياسية وعادت تألف أكثر فأكثر ممارسة السلطة وتحمل أعباء المسؤوليات الوطنية والتي كانت تلك الشعوب محرومة منها منذ قرون عدة من قبل أوصيائها الأجانب.

إن عملية التطور نحو الإستقرار هذه ترتسم بوضوح لدى شعوب الشرق العربي الحالية حيث الميول العميقة تتجه أكثر فأكثر نحو الحفاظ على السيادات الإقليمية بأكثر من الطموح نحو التوحيد السياسي.